الجذورُ الثقافيّةِ والسياسيّةِ والاجتماعيّةِ لقيامِ الإمامِ الحسينِ عليه السلام

حسين عبد المحمدي[1]

خلاصة البحث

إنَّ عوامل نهضة عاشوراء وخلفياتها - باعتبارها أهمّ حدث في صدر الإسلام - هي من القضايا التي ورد بشأنها آراء ووجهات نظر مختلفة، وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ السبب الرئيس لقيام الإمام الحسين عليه السلام هو دعوة أهل الكوفة، ورآى آخرون أنّ إصرار يزيد عليه بالبيعة هو العامل الأهمّ، بينما ذهب بعض آخر إلى أنّ الانحرافات السياسيّة والثقافيّة هي العلّة التامّة لحركة عاشوراء، وقد ذكر بعضهم أسبابًا أُخرى كالعوامل العرقيّة والقبليّة، وقد أمعن الجميع النظر في هذه الحركة الإلهيّة من زاويةٍ معيّنةٍ وعبّروا عن آرائهم الخاصّة، ولا خلاف بين الباحثين والكتّاب من حيث قبول تأثير العوامل المذكورة في وقوع النهضة الحسينيّة أساسًا، لكنّهم يختلفون في مدى التأثير والدور الذي كان لكلٍّ من هذه العوامل في أصل نشوء حركة عاشوراء، وأما ما يُستنبط من التقارير التاريخيّة وكلمات قائد النهضة هو أنّ أهمّ سبب لقيام الإمام الحسين عليه السلام هو تعرّض جوهر الإسلام لخطر التحريف، وابتعاد المجتمع الإسلامي عن المثل السامية التي بُعث به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله،

١. قسم التأريخ، مجمع الإمام الخميني قدس سره، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، قم، إيران. البريد الإلكتروني: hoseinmohammadi31@yahoo.com.

فكان الهدف الأساس من القيام منع الشقاق وسدّ فجوة الانحراف التي ظهرت في الفكر الديني منذ السقيفة، كما أنّ ثمة عوامل أُخرى إلى جانب هذه الأسباب كانت مؤثّرة في حركة عاشوراء، وقد تمّ البحث في المقال في أسباب قيام سيد الشهداء عليه السلام وعوامله؛ استنادًا إلى المصادر التاريخيّة القديمة وخطابات وكلمات الإمام الحسين عليه السلام.

المفردات الرئيسة: قيام الإمام الحسين عليه السلام، الجذور الثقافيّة، الجذور السياسيّة، الجذور الاجتماعيّة، عوامل قيام الإمام الحسين عليه السلام.

المدخل

لا شكّ ولا ريب أنَّ "قانون العلّيّة" يسري في الأحداث والظواهر السياسيّة والاجتماعيّة، مثلما يسري في الظواهر الفيزيائيّة؛ ومع أنّ الكشف عن أسباب الظواهر الأعمّ من الطبيعيّة والبشريّة هي مهمّةٌ بالغةُ الصعوبةِ، لكنّ هذه المهمّة تبدو أدقّ وأعمق في البحث عن جذور الأحداث الاجتماعيّة، وفيما يلي نشير إلى بعضها:

١. تتجذّر الأحداث الاجتماعيّة في القيم والمطالب البشريّة؛ ولأنّ هذه المطالب ليست في حوزة الباحثين وخبرتهم مباشرة، ولا يتسّنى كشف أهداف ودوافع اللاعبين في ساحة حدثٍ معيّنٍ من الأحداث الاجتماعيّة بسهولة لمراقبيها، فلا بدّ من محاولة عدّة أجيال لاستكشافها، وقد لا تُكتشف هذه العوامل كاملةً أبدًا.

٢. إنّ العديد من الأحداث الاجتماعيّة - وخاصّة ما يحمل من طابع الاحتجاج والعنف - هي في الواقع ردّ فعل للظروف المعاكسة السائدة في المجتمع، والظروف التي يرتبط بعضها عادةً بقضايا ثقافيّةٍ واقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ؛ ولأنّ مسار هذه الشؤون مصحوب بسياسات محدّدة - وعادةً ما تكون غير معلن عنها - فهي أكثر تعقيدًا من الظواهر الفيزيائيّة؛ ونتيجةً لذلك، فإنّ اكتشاف هذه السلسلة من العوامل والأسباب التي تلعب دورًا محوريًّا في ظهور الأحداث الاجتماعيّة هو مهمّة حسّاسة وصعبة.

٣. قد تكون أسباب وخلفيات حدث اجتماعيّ متنوّعة جدًّا ومتعدّدة لدرجة أنّه يكاد يكون من المستحيل تشخيصها على وجه التحديد، ولتوضيح هذا الأمر يكفي النظر في سلسلة من الأحداث المشابهة، فمثلًا يمكن أن تحدث ثورة وحركة إصلاحيّة بسبب الضغوطات الاقتصاديّة أو القضايا السياسيّة والثقافيّة، أو تحت تأثير العوامل العرقيّة والقوميّة، أو مزيج من هذه العوامل، كما أنَّ في بعض الحالات تكون الظروف الإقليميّة والأحداث الجانبيّة الطبيعيّة والبشريّة مؤاتية أو غير متؤاتية، ممّا يؤدّي إلى تسريع أو إبطاء سير وقوع الحادث، وكذلك يلعب الذكاء الشخصيّ وإدراك اللاعبين في

ساحة الحدث، دورًا فعّالًا في تكوين الظواهر البشريّة كمًّا وكيفًا؛ فإنَّ تنوّع هذه العوامل يعتبر مشكلة تجعل النمذجة الدقيقة للظواهر البشريّة أمرًا صعبًا.

وبالإضافة إلى الجوانب الثلاثة المذكورة أعلاه، والتي هي من بين مشاكل البحث في العلوم الإنسانيّة، هناك موضوع آخر يتعلّق بالأحداث التاريخيّة، وهو موضوع المصادر والمآخذ من حيث الصحّة والسُّقم، أمرٌ يُصعب تحليل جميع جوانب الحدث أكثر، بما في ذلك العوامل والخلفيّات المسبّبة في ظهورها.

فوفقًا لما ذُكر آنفًا، في تحليل أيّ حدث تاريخيّ، قد تُؤخَذ بعض الأسباب الممهِّدة بمثابة العلّة التامّة، أو قد تُظهَر بعض العوامل المهمّة ذات الدوافع السياسيّة والدينيّة الخاصّة وما إلى ذلك أقلّ مما هي عليه، أو لا تُذكَر أساسًا؛ فإنّ البحث والتحليل حول الأحداث التاريخيّة بشكلٍ مستمرٍّ لهو أمرٌ مهمٌّ وضروريٌّ.

وفي هذا المقال، تمت دراسة عوامل وخلفيّات حركة عاشوراء وتحليلها، مع العلم بأنّ هناك نقاشات وآراء كثيرة متنوّعة حول هذا الموضوع، وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ السبب الرئيس لقيام الإمام الحسين عليه السلام هو دعوة أهل الكوفة، ورآى آخرون أنّ إصرار يزيد عليه بالبيعة هو العامل الأهمّ، بينما ذهب بعض آخر إلى أنّ الانحرافات السياسية والثقافيّة هي العلّة التامّة لحركة عاشوراء، وقد ذكر بعضهم أسبابًا أُخرى كالعوامل العرقيّة والقبليّة، وقد أمعن الجميع النظر في هذه الحركة الإلهيّة من زاويةٍ معيّنةٍ وعبّروا عن آرائهم الخاصة، ولا خلاف بين الباحثين والكتّاب من حيث قبول تأثير العوامل المذكورة في وقوع النهضة الحسينيّة أساسًا، لكنّهم يختلفون في مدى التأثير والدور الذي كان لكلٍّ من هذه العوامل في أصل نشوء حركة عاشوراء، وأما ما يُستنبط من التقارير التاريخيّة وكلمات قائد النهضة هو أنّ أهم سبب لقيام الإمام الحسين عليه السلام هو تعرّض جوهر الإسلام لخطر التحريف، وابتعاد المجتمع الإسلاميّ عن المثل السامية التي بُعث به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فكان الهدف الأساس من القيام منع الشقاق وسدّ فجوة

الانحراف التي ظهرت في الفكر الدينيّ منذ السقيفة، كما أنّ ثمة عوامل أُخرى إلى جانب هذه الأسباب كانت مؤثّرة في حركة عاشوراء.

امتداد جذور حركة عاشوراء إلى السقيفة

إنَّ قيام سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام كأعظم حدث في تاريخ الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وباعتبارها ثورة اجتماعيّة كبيرة، هي من الأحداث التي لم تكن أسبابها وليدة لحظة عام ٦١ هجريّ، فلا بدّ من البحث عن جذورها أثناء عدّة عقود قد سبقتها، وفي طيات التطوّرات الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في عصر الخلفاء الراشدين.

فما حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله في سقيفة بني ساعدة كان له جذوره في أحداث العهد النبوي صلى الله عليه وآله، وهي بدورها تتجذّر في أحداث ما قبل الإسلام، كما كانت حادثة عاشوراء من النتائج المريرة لسقيفة بني ساعدة. وبعبارة أُخرى، كانت عاشوراء حلقة من سلسلة متّصلة، ينتهي أحد طرفيها إلى السقيفة والطرف الآخر إلى "كربلاء"، كما عبّر عن ذلك "مهيار ديلمي" في قصيدته الغديريّة:

أضالِيْلَ ساقَتْ مُصابَ الحُسَيْن عليه السلام ... وَمَا قَبلَ ذاك وَما قَدْ تَلا
فَيَومَ السَّقيفَةِ يَا بْنَ النَّبِي ... طَرَّقَ يَوْمَكَ فِي كَربَلا
وَغَصْبُ أَبِيكَ عَلى حَقِّهِ ... وَأُمِّكَ حَسَّنَ أَنْ تُقْتَلا[1]

وقال أبو ذر الغفاري بجوار الكعبة:

لَوْ قَدَّمْتم مَنْ قَدَّمَ اللهُ وَأَخَّرْتُمْ مَنْ أَخَّرَ اللهُ، وَجَعَلْتُمُ الْوِلاْيَةَ حَيْثُ جَعَلَهَا اللهُ، لَما عالَ وَلِيُّ اللهِ، وَلَما ضاعَ فَرضٌ مِنْ فَرائِضَ اللهِ.[2]

وبينَا ابن عباس يخطب في الناس بالبصرة إذ أقبل عليهم بوجهه، فقال:

أيّتها الأمة المتحيّرة في دينها! أما لو قدّمتم مَن قدّم الله وأخّرتم من أخّر الله وجعلتم الوراثة والولاية حيث جعلهما الله، لما عال سهم من فرائض الله، ولا عال وليّ الله، ولا

١. الأميني، الغدير: ٤/٢٤٨.
٢. الطبرسي، الاحتجاج: ١/ ٣٦٧، التحقيق: هادي به و بهادري.

اختلف اثنان في حكم الله، ولا تنازعت الأُمّة في شيء من كتاب الله، فذوقوا وبال ما فرطتم فيه بما قدمت أيديكم، وَسَيَعلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أَيّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ.[1]

وأمّا السقيفة، كظاهرة اجتماعيّة، فهي أيضًا لم تظهر فجأة بين ليلة وضحاها، بل يجب البحث عن جذورها في عصر الجاهليّة والأحزاب السياسيّة والاجتماعيّة في عصر النبوة، وفي الواقع كانت السقيفة نتيجة عودة المعايير والملاكات الجاهليّة.

ومن هذا المنطلق، فإنَّ كلَّ ما جاء في الإسلام من بُؤسٍ وانحرافاتٍ وبدع، وكلّ ما لحق بأولياء الله من ظلمٍ وجورٍ تمتدّ جذوره إلى السقيفة، وأيّ محنةٍ وشقاءٍ بعد الهجرة تتأثّر وتصدر من اتّجاهات ما قبل الهجرة، وكلّ مشكلة من مشاكل ما قبل الهجرة تنتهي إلى بعض بطون قريش، والشيوخ الذين اعتنقوا الإسلام نفاقًا، وقد قال الإمام عليه السلام عن هؤلاء الفاسدين في المجتمع الإسلاميّ وهم يبحثون عن فرصة الارتداد: «... مـا أَسْلَمُوا وَلـكِنِ اسْتَسْلَمُوا وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمّا وَجَدُوا أَعْوانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».[2]

وتؤكّد الأحداث التي تلت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حقيقة أنّ العناصر الرَّجعية حاولت جاهدةً إعادة السنن والمعتقدات الجاهليّة الأُولى، وأنّ بعض الأشخاص من ضعاف النفوس، بسبب ضعف إيمانهم، مهّدوا الطريق بصمتهم للفرقة الأُولى التي تقمّصت السلطة، فأخذ المجتمع الإسلاميّ في الانهيار شيئًا فشيئًا. طبعًا لم تكن الرّجعية هذه أمرًا مستبعدًا؛ لأنّه بالإضافة إلى واقع أنّ المشركين لم تُجتَثّ جذورهم في الحجاز، فإنّ بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أيضًا لم يؤمنوا برسالته إلّا المتظاهرين بالإسلام، وأساسًا يمكن توقع هذه الظاهرة في أيّ ثورة ثقافيّة وسياسيّة واجتماعيّة؛ لأنّه في كلّ حركة – أوّلًا – لا يصل التحوّل الاعتقاديّ والأخلاقيّ لدى الأفراد إلى درجة الكمال. وثانيًا لا يخضع كلّ الأفراد للتحوّل. وبالتالي، فإنّ بقايا المعتقدات والأخلاق السابقة تبقى في

١. المفيد، الأمالي: ٦٠.
٢. نهج البلاغة، الكتاب: ١٦.

نفوسهم إلى حدٍّ ما؛ حيث تلعب العناصر غير القابلة للتحوّل دورًا مهمّا هناك، وتوفّر الأساس لعودة المجتمع إلى النظام السابق.

وفي الواقع كان عدم اهتمام بعض المسلمين في صدر الإسلام بقضية "غدير خم" وولاية علي عليه السلام وتشكيل سقيفة بني ساعدة هو شاهد على الموضوع؛ إذ قال الإمام علي عليه السلام بعد حادث السقيفة وهو مهضوم الحقّ:

أَلَا وَإِنّكُم قَد نَفَضتُم أَيدِيَكُم مِن حَبلِ الطّاعَةِ، وَثَلَمتُم حِصنَ اللهِ المَضرُوبَ عَلَيكُم بِأَحكَامِ الجَاهِلِيّةِ.. وَاعلَمُوا أَنّكُم صِرتُم بَعدَ الهِجرَةِ أَعرَابًا وَبَعدَ المُوَالَاةِ أَحزَابًا، مَا تَتَعَلّقُونَ مِنَ الإِسلَامِ إِلّا بِاسمِهِ وَلَا تَعرِفُونَ مِنَ الإِيمَانِ إِلّا رَسمَهُ، تَقُولُونَ النّارَ وَلَا العَارَ كَأَنّكُم تُرِيدُونَ أَن تُكفِئُوا الإِسلَامَ عَلَي وَجهِهِ...![1]

اتّساع نطاق الرَّجعية، إثرَ تهميش أهل البيت عليهم السلام

ولمّا حُرِم الإمام علي بن أبي طالب صلى الله عليه وآله، بوصفه مفسّر القرآن الكريم والذابّ عنه، من حقّه، (أي الخلافة)، وهُجِر أهل البيت الرسول صلى الله عليه وآله، أخذت عمليّة الرجعيّة في التسارع، حيث ظهرت خلال خمسة وعشرين سنة من خلافة الخلفاء الثلاثة، الكثير من الانحرافات والبدع؛ ولهذا السبب عندما وافق الإمام علي عليه السلام على قيادة المجتمع، أعطى الأولوية للإصلاحات الداخليّة قبل أيّ شيء آخر، لكنَّ جبهة النفاق في عهد الخلفاء، خاصّة في عهد عثمان، والعناصر غير الخالصة التي لم تكن تتحوّل بشكل كامل والتي كانت تبحث عن المقام والمنصب، تمكّنت من اكتساب قوّةٍ اقتصاديّةٍ وعسكريّةٍ كبيرةٍ في البلاد من خلال استخدام سلطتها السياسيّة؛ ولهذا السبب عرقلت إصلاحات الإمام علي عليه السلام من خلال خلق حروب أهليّة ومشاكل أُخرى، وقد بقيت الخطط الإصلاحيّة لذاك الرجل الإلهيّ إثر استشهاده بظلم هؤلاء، غير مكتملة.

ثمّ مع غزو الأُمويين للعالم الإسلاميّ، دفعت جبهة النفاق المجتمع نحو الانحطاط

١. المصدر نفسه، الخطبة: ١٩٢.

والدمار بقوّةٍ أكبر، وفي نهاية عهد معاوية بن أبي سفيان بلغ الفساد والانحلال ذروته؛ حيث تمّ إحياء الكثير من العادات والسنن الجاهليّة، كما أخذ سنّة النبيﷺ والقرآن الكريم في التدهور والاضمحلال.

لهذا انتفض الإمام الحسينعليه السلام لإحياء دين الإسلام وسننه الضائعة؛ حيث قال: «وأنَا أدعوكُم إلى كِتابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّهﷺ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ قد أُميتَت، وإنَّ البِدعَةَ قَد أُحيِيَت».[1]

وعليه، فإنّ أهمّ سبب لقيام الإمام الحسينعليه السلام هو ردّ فعل تجاه الأُمويين في إحياء السنن الجاهليّة وإضعاف التعاليم الإسلاميّة السماويّة، كما كانت قيادة جبهة الباطل في مأساة عاشوراء الدمويّة أيضًا بيد أبناء الملحدين والمعارضين في عصر الجاهلية والمنافقين في عهد رسول اللهﷺ، وفيما يلي نوضح هذه الحقيقة التاريخيّة بجلاءٍ أكثر من خلال الاستشهاد بالمصادر القديمة:

كيفية انتشار الانحرافات في المجتمع الإسلاميّ

وعندما ابتعدت الإمامة والقيادة عن مركزها ومحورها الأصليّ، ووقعت هذه الأمانة الإلهيّة[2] في يد من لا يستحقها بأيّ شكل من الأشكال، ظهرت كذلك أرضيّة تفكّك سائر عُرى الدين. وبعبارة أُخرى، فإنَّ سيطرة الرَّجعيين على الساحة السياسيّة والحكوميّة قد سخّرت العديد من العوامل في خدمتهم، فهم باستخدام هذه العوامل السياسيّة والاقتصاديّة، حاولوا تهميش أهل البيتعليهم السلام في المجتمع الإسلاميّ، ومنعوا من كتابة ونشر الحديث النبويﷺ، ما أدّى أخيرًا لظهور البدع وتزوير الأحاديث ووضع التفاسير الباطلة للقرآن الكريم، وقد انتشرت حركة الرجعيّة بشكلٍ رهيبٍ في المجتمع، وقد حلّت القيم المادّيّة والجاهليّة محلّ القيم المعنويّة والإلهيّة، وكما تنبأ به النبيﷺ،[3] أصبح الناس في فتنٍ كقطع الليل المظلم.

---

١. المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار: ٣٤٠/٤٤ ؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٣٠٥/٣.

٢. ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها﴾ [النساء/٥٨]، ومن أبرز مصاديق الأمانة في الآية الشريفة الحكم والمهام الاجتماعيّة (الطبرسي، مجمع البيان: ٦٣/٢).

٣. قال رسول اللهﷺ: «سَتَكونُ فِتَنٌ لا يَسْتَطيعُ الْمُؤمِنُ أَنْ يُغَيِّر فيها بِيَدٍ ولا لِسانٍ». انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ١٤٤/١٨؛ الصدوق، أمالي: ٣٠٢.

وفي النصف الثاني من عهد خلافة عثمان، زادت هذه الانحرافات لدرجة أنّ الإمام علي عليه السلام لم يتمكّن من تصحيحها حتّى في عهد خلافته، ثمّ بعد استشهاده عليه السلام وتثبيت حكومة معاوية في العالم الإسلاميّ بأكمله، استشرت حركة الرجعيّة في ظلّ حكم معاوية بن أبي سفيان عشرين عامًا وانتشرت البدع والجرائم في حقّ الإسلام والمسلمين.

ومع أنّ أهل البيت عليهم السلام بذلوا خلال هذه الفترة، جهودًا كبيرة لإصلاح الأُمور، بيد أنَّ هذه الأنشطة لم تنجح في الغالب بسبب سياسات معاوية المخادعة وشخصيّته المنافقة، وقد خلق موت معاوية وبداية حكم يزيد فرصةً للإمام الحسين عليه السلام للنضال، لإنقاذ المجتمع من الانحرافات وإيقاظ الأُمّة الإسلاميّة بتضحياته، ولولا تضحية الإمام الحسين عليه السلام بحياته، لما ترك بنو أُمية اسمًا للإسلام بلا شكّ.

الأحداث المُرّة خلال خمسين عامًا من عصر الإمامة

وقد تبيّن ممّا حدث، أنَّ حادثة عاشوراء كانت نتيجة خمسين عامًا من الأحداث في العالم الإسلامي، وأنَّ الفكرة القائلة بأنّ قيام الإمام الحسين عليه السلام بدأ اعتبارًا من موت معاوية وتولّي يزيد الحكم هي مخالفة تمامًا للواقع، بل إنّ انتفاضة الإمام الحسين عليه السلام جذورها أعمق ممّا يمكن أن تقتصر على بداية سلطنة يزيد ومطالبته للإمام عليه السلام بالبيعة؛ إذ بعد وفاة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، كان الإمام الحسين عليه السلام حاضرًا في تقلّبات المجتمع الإسلامي حيث يراقبها بيقظةٍ تامّةٍ، ولم يكن الأمر كما لو أنّ الإمام الحسين عليه السلام فتح عينيه فجأة، ورأى كتاب يزيد أمامه وأدرك أنّه لا خيار أمامه سوى مبايعة طاغية الزمان أو الشهادة، بل وإنّما الإمام كان محزوز القلب لسنوات عديدة.

ولقد رأى ذلك الإمام عليه السلام بأم عينيه المصائب الشاقّة للغاية التي تسببوا فيها لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ولقد سمع كلماته المليئة بالحزن والأسى، ولم ينسَ يومًا ما عبارة: «فَصَبَرتُ وفي الْعَينِ قَذى وفي الْحَلَقِ شَجـى».[1]

١. نهج البلاغة، الخطبة: ٣.

ولقد رأى الإمام الحسين عليه السلام المشاكل التي خلقها معاوية للحكومة العلويّة بسياساته الاحتياليّة، وكيف شنّ حروبًا سقطت ضحيّتها آلاف من النفوس، فهو راقب خيانات معاوية وبدعه في عهده عن كثب، وشهد على نقض الأحكام والقيم الإسلاميّة بكل أنواع المهارات والخداع التي كان عامّة الناس عاجزة عن إدراكها، لكنّ الظروف السياسيّة والاجتماعيّة في عهد معاوية كانت بحيث لم تكن تتهيّأ له الفرصة على إظهار ردّ فعلٍ عسكريّ وثوريّ قويّ، إلى أن تسنّت له هذه الفرصة بموت معاوية وتسلّق يزيد أعواد منبر رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفيما يلي بعض الأمثلة على متاعب العالم الإسلاميّ والانحرافات والجرائم التي حدثت في عهد معاوية، مع ملاحظة جذورها التاريخيّة:

١. سياسة التمييز العنصري

لقد حارب الإسلام، بوصفه إيديولوجيّة إلهيّة وإنسانيّة، الثقافة العنصريّة والعرقيّة منذ أوّل اليوم، وقد نصّ القرآن الكريم بوضوح على ما يلي:

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوبًا وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾.[١]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة الوداع: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[٢]. وكان صحابة الرسول صلى الله عليه وآله من جنسيّات مختلفة: سلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصُهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، وحذيفة بن يمان... يعيشون معًا بحقوق متساوية، لكن تمَّ خلال خلافة عمر وضع سياسة التمييز العنصريّ بخلاف النص الصريح للقرآن وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد أورد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة:

وأما عمر فإنه لمّا ولّي الخلافة فضّل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم،

١. الحجرات: ١٣.

٢. الأميني، الغدير: ١٨٨/٦.

وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافّة على الأنصار كافّة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح (مَن كان والداه عربيَّين) على المولى (مَن كان أحد أبوَيه عربيًّا).[1]

إنّ أسلوب الخليفة الثاني في منح المزيد من الامتيازات لبعض الناس قد أظهر أثره السيّء ومهّد الطريق لإحداث اختلاف طبقي لا ينسجم مع السياسة الماليّة الإسلاميّة، وبحسب بعض الروايات[2] فقد أدرك عمر ذلك أخيرًا، وحاول تغيير منهجه والعودة إلى النظام المعتاد في زمن النبي صلى الله عليه وآله، لكنّ الأجل لم يمهله، ومع تولي عثمان الخلافة وسيطرة الأمويين على مقاليد الحكم، سلبت هذه الفرصة بالكامل من المسلمين.

توضّح النصوص التاريخيّة هذا الجانب من سياسة الخليفة الثاني، والتي كانت لها مظاهر مختلفة، فقد منع هو - وفقًا لسياسته العنصريّة - غير العرب من الإقامة في المدينة المنورة، ولم يُجر القصاص على العرب مقابل العجم، وفضّل العرب على غير العرب وقريش على غير قريش في تقسيم بيت المال.[3]

وقد انتشرت هذه السياسة في عهد معاوية، فقد كتب لزياد بن أبيه:

فإذا جاءك كتابي هذا فأذِلّ العجم وأهِنهم وأقصِهم، ولا تستعن بأحدٍ منهم، ولا تقضِ لهم حاجةً، فو الله إنّك لابن أبي سفيان خرجت من صلبه، وأنت يا أخي عندي صدوقٌ؛ إنّك قرأت كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة وكنت يومئذٍ كاتبه وهو عامل بالبصرة وأنت أنذل الناس عنده، وأنت يومئذٍ ذليل النفس تحسب أنّك مولى لثقيف، ولو كنت تعلم يومئذٍ يقينًا - كيقينك اليوم- أنّك ابن أبي سفيان لأعظمت نفسك وأنفت أن تكون كاتبًا لدعيّ الأشعريين. وحدّثني ابن أبي معيط أنّك أخبرته: أنّك قرأت كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري وبعث إليه بحبلٍ طوله خمسة أشبار، وقال له: "أعرض من قبلك من أهل البصرة. فمن وجدته من الموالي ومن أسلم من الأعاجم قد بلغ خمسة أشبار، فقدّمه فاضرب عنقه"، فشاورك أبو موسى في ذلك، فنهيته وأمرته أن يراجع عمر. فراجعه وذهبت أنت بالكتاب إلى عمر، وإنّما صنعت ما صنعت تعصّبًا للموالي وأنت

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١١/٨.

٢. اجتهادي، أبو القاسم، "بررسی وضع مالی و مالیه مسلمین"، ص٥؛ منقول من: طبقات ابن سعد: ٢١٧/٣.

٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ١٠٦/٢.

يومئذٍ تحسب أنّك منهم وأنّك ابن عبيد. فلم تزل بعمر حتى رددته عن رأيه وخوّفتَه فرقةَ الناس، فرجع. وقلت له: "ما يؤمنك - وقد عاديت أهل هذا البيت - أن يثوروا إلى علي فينهض بهم فيزيل ملكك"، فكفّ عن ذلك..[١]

فلو كنت - يا أخي - لم ترد عمر عن رأيه لجرت سنة ولاستأصلهم الله وقطع أصلهم... وانظر إلى الموالي ومن أسلم من الأعاجم، فخذهم بسنة عمر بن الخطاب؛ فإنّ في ذلك خزيهم وذلّهم، أن تنكح العرب فيهم ولا ينكحوهم، وأن ترثهم العرب ولا يرثوهم، وأن تقصر بهم في عطائهم وأرزاقهم، وأن يقدموا في المغازي يصلحون الطريق ويقطعون الشجر، ولا يؤم أحد منهم العرب في صلاة، ولا يتقدّم أحد منهم في الصف الأوّل إذا حضرت العرب إلّا أن يتمّوا الصف، ولا تولّ أحدًا منهم ثغرًا من ثغور المسلمين ولا مصرًا من أمصارهم، ولا يلي أحدٌ منهم قضاء المسلمين ولا أحكامهم؛ فإنّ هذه سنّة عمر فيهم وسيرته...[٢]

وقد توسّعت سياسة التمييز العنصريّ في عهد الأمويّين بشكلٍ كبير ممّا ترك خلفه عواقب خطيرة للغاية، فقد وفّر هذا العامل في البداية الأساسَ لسلطة الأُمويين، ولكن على المدى الطويل أصبح أحد العوامل المهمّة لسقوط الدولة الأُمويّة وانحطاطها؛ لأنّ العباسيين استخدموا ظلامة الموالي واضطهادهم كأداة ضغط قوية ضدّ الأُمويين.

وأمّا خلفيّة نفوذ الأُمويين في نظام قيادة العالم الإسلاميّ تعود بشكل أساس إلى عهد عثمان؛ حيث تصرّف بغرابة في إعطاء السلطة لبني أُميّة من ناحيتين سياسيّة واقتصاديّة؛ فمن الناحية السياسيّة: ولّى وليد بن عُقبة الكوفة، وعبد الله بن أبي سرح مصرَ (وشمال إفريقيا)، ومعاوية بن أبي سفيان الشامات، وسعيد بن أبي العاص البصرة،[٣] كان هؤلاء جميعهم من الأُمويين، وسيطروا على بيت المال بالكامل، وأصبحوا أقوياء لدرجة أنّهم استطاعوا بعد مقتل عثمان وتولي علي بن أبي طالب عليه السلام الخلافة، الوقوف ضده، وتنظيم حروب داخليّة واحدة تلو الأُخرى، ومنع إصلاحاته، وأخيرًا بسط حكمهم على العالم الإسلاميّ برمّته.

١. سليم بن قيس، أسرار آل محمد: ١٥٢-١٥٣ ؛ الشيخ عباس القمي، سفينة البحار: ١٦٥/٢.
٢. سليم بن قيس، المصدر نفسه: ١٥٤؛ الشيخ عباس القمي، المصدر نفسه: ١٦٥/٢؛ المصدر نفسه، نفس المهموم: ١٤٤.
٣. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١١/٣-١٣.

٢. الأرستقراطيّة الأُمويّة وسوء استعمال بيت المال

قد أسّس الخليفة الثالث من الناحية الاقتصاديّة، النظام الإقطاعيّ، وخصّص الممتلكات العامّة لأقاربه هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، منحه عطايا كبيرة غير عاديّة؛ حيث أعطى (٣٠٠) ألف درهم لحارث بن حكم أخي مروان، وأعطاه زكاة الإبل وقطعة أرض خصّها نبيّ الإسلام للمسلمين، كما أعطى (١٠٠) ألف درهم لسعيد بن العاص بن أمية و(١٠٠) ألف لمروان بن الحكم و(٢٠٠) ألف لأبي سفيان. وقد أخذ لنفسه (٣٠،٥٠٠،٠٠٠) درهم و(٣٥٠،٠٠٠) دينار، ولعبد الرحمن بن عوف (٢،٥٦٠،٠٠٠) دينار من الخزانة.[١]

يكتب المسعودي:

> **بَنَى عثمان بن عفان قصرًا في المدينة، وشيّدها بالحجر والكِلْس، وجعل أبوابها من الساج والعَرْعَر، واقتنى أموالًا وجنانًا وعيونًا بالمدينة. وذكر عبد الله بن عتبة أنّ عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومئة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القُرَى وحُنَيْن وغيرهما مئة ألف دينار، وخلف خَيْلًا كثيرًا وإبلًا...**
>
> **فسلك عمالُه وكثير من أهل عصره طريقته، وتأسَّوْا به في فعله. فقد بنى الزبير بن العوام داره بالبصرة، وهي الكوفة في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة - نزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، وابتنى أيضًا دورًا بمصر والكوفة والإسكندريّة، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس، وألف عبد وأمة، وخططًا بحيث ذكرنا من الأمصار، وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكُنَاسة بدار الطلحيين، وكان غلّته من العراق كلّ يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية الشراة أكثر ممّا ذكرنا، وشيّد داره بالمدينة وبناها بالآجرِّ والجِصِّ والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مئة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته رُبُعُ ثمنِ مالِهِ أربعةً وثمانين ألفًا. وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شُرُفَاتِ. وقد ذكر سعيد بن المسيب أنّ زيد بن ثابت حين مات خلف الذهب والفضّة ما كان يُكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مئة ألف دينار...**[٢]

١. المصدر نفسه: ١٩٨/١؛ الأميني، الغدير: ٢٨٦/٨.

٢. المسعودي، مروج الذّهب: ٣٥٠/٢؛ الأميني، المصدر نفسه: ٢٨٦/٦.

نتيجةً لذلك؛ ظهرت في عهد عثمان أرستقراطيّة جديدة في المجتمع الإسلاميّ واختفت المساواة والعدالة الاجتماعيّة.

وفي رواية الطبري أنّ عثمان قد أسرف في تولية بني أُميّة وتخصيص بيت المال لهم، إلى أنّ الناس في مختلف المناطق تمرّدوا ضدّه، وقد تجرّأ الأُمويّون حتّى قيل إنّ سعيد بن عاص، عندما ولي الكوفة، قال: «إنَّ السواد بستان لقريش وبني أُميّة»؛ (ما أثار سخط مالك الأشتر).[١]

ومن أعمال الخليفة الثالث، دعمه للنظام الإقطاعيّ، فقد خصّص عمر - كما أشرنا سلفًا - بعض أراضي بيت المال للسابقين في الإسلام والمجاهدين الكبار، ثمّ وهب عثمان بعض الأراضي لأقاربه، ورسّخ بذلك النظام الإقطاعيّ.[٢]

كما أورد ابن أبي الحديد في شرحه:

> **وتصدّق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم، وأقطع مروان فدك وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها ﷺ تارةً بالميراث وتارةً بالنحلة فدفعت عنها، وحمى المراعي حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلّا عن بني أميّة، وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.**[٣]

وكانت نتيجة سياسة عثمان العنصريّة والقبليّة هي اقتدار بني أُميّة في أبعاد مختلفة، فمن خلال اكتساب القوّة السياسيّة، استولوا على الموارد الاقتصاديّة للعالم الإسلاميّ أيضًا؛ وبهذه الطريقة تمكّنوا من اكتساب قوة عسكريّة كبيرة، كما حصل معاوية بن أبي سفيان على قدر كبير من القوّة الاقتصاديّة والعسكريّة نتيجة دهائه وخداعه،

١. الطبري، المصدر نفسه: ٣٦٥/٣ ؛ ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١٢٩/٢.
٢. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٢٦٩/١. تشير "القطيعة" والجمع قطائع إلى الأرض المتعلقة ببيت المال، وعلى المزارع دفع الضريبة لها.
٣. المصدر نفسه: ١٩٩.

وكذلك أهمّيّة منطقة الشامات، وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام حكم جميع مناطق العالم الإسلاميّ نحو عشرين عامًا، وأخذ البيعة لابنه يزيد وليًّا للعهد.

٣. تحوّل الخلافة الإسلاميّة إلى ملكيّة وراثيّة

إنّ مبدأ القيادة والإمامة في الإسلام يقوم على أساس "القائد للشعب، والشعب للقائد"؛ لذلك يجب على قائد المجتمع الإسلاميّ أن يعامل الناس معاملةً حسنةً، وأن يعتبرهم أجزاءً وعناصر من شخصيّته، وأن يتمتّع بالورع والوعي الكامل بمهامّ القيادة الخطيرة من أجل هداية المجتمع الإسلاميّ إلى السعادة كما ينبغي، وإنّ تأثير القادة الاجتماعيين في إصلاح المجتمع كبيرٌ لدرجة أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال:

صِنْفانِ مِنْ أُمَّتِي إذا صَلُحا صَلُحَتْ أُمَّتي، وَإذا فَسَدا فَسَدَتْ أُمَّتي، قيلَ: يا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُما قالَ: اَلْفُقَهاءُ وَالأُمَراءُ.[١]

وقال علي عليه السلام:

فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إلّا بِصَلاحِ الْوُلاةِ.[٢]

لقد قام الأُمويّون بقلب الخلافة والقيادة الإسلاميّة رأسًا على عقب مثل العديد من المبادئ الدينيّة الأُخرى؛ فإنّ معاوية امتثالًا لأمر أبيه الذي قال: «تَلَقَّفُوهَا يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ تَلَقُّفَ الْكُرَةِ، فَوَ اللهِ مَا مِنْ جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ؛ أمّا وَالَّذى يَحْلِفُ بِهِ أبو سُفيان، ما زِلْتُ أَرْجوها لَكُمْ، وَلَتَصيرَنَّ إلى صِبْيانِكُمْ وِراثَةً»،[٣] قد سخّر كلّ شيء لبني أُميّة، ولم يخدم الأمّة الإسلاميّة فحسب، بل حوّل الخلافة الإسلاميّة إلى ملكيّة وراثيّة، وأثار قضيّة ولاية العهد لأوّل مرّة في تاريخ الخلافة الإسلاميّة في حياته،[٤] فقد عهد لابنه يزيد،

١. المجلسي، بحار الأنوار: ٤٩/٢.

٢. نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٦.

٣. المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠٨/٣٣. «تَلَقَّفُوها يا بَني عَبْدِ شَمسٍ تَلَقُّفَ الْكُرَةِ، فَوَاللهِ ما مِنْ جَنَّةٍ وَلا نارٍ، وَما زَلْتُ أَرْجُوها لَكُمْ إلىٰ أَبْنائِكُم وِراثَةً».

٤. قال سعيد بن مسيّب: "لعن الله معاوية فقد أخرج الخلافة عن أصولها، وجعلها كالملك". وكان يقول معاوية: "أنا أول الملوك." [تاريخ اليعقوبي: ٢٢١/٢].

وأخذ له البيعة من الناس بالقهر والتهديد، ومؤامرات أخرى كثيرة، بينما لم يعهد لابنه أيّ خليفة من الخلفاء السابقين كأبي بكر وعمر وعثمان الذين كانوا موضع عناية وقبول معاوية، وكان المعيار المقبول عمليًّا لدى الجمهور (في اختيار الخليفة) حتّى عهد معاوية، هو شورى أهل الحلّ والعقد أو الاختيار العام، وبغضّ النظر عن حقيقة أن تعيين ولي العهد كان بدعة، فإنّ يزيد بوجهٍ خاصّ كان شخصًا فاسقًا وفاسدًا ومنحرفًا، ولم يكن يستحقّ الخلافة بأيّ شكلٍ من الأشكال، وكان فعل معاوية مشينًا وكريهًا لدرجة أنّ رجلًا فاسقًا مثل زياد بن أبيه، رفض اقتراحه في البداية.

فلمّا أراد معاوية أن يطرح فكرة ولاية يزيد لعهده كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى رجلٍ حكيمٍ وموثوقٍ عنده، فقال:

> **إنَّ لكلّ مستشيرٍ ثقة، ولكلّ سرٍّ مستودع، وقد دعوتك لأمر اتّهمت عليه بطون الصحف، فَالقِ أميرَ المؤمنين [معاوية في الشام] مؤدّيًا عنّي، فأخبره عن فعلات يزيد، وقل له: ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغات، ويد من الشراب، ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر؟ ولكن تأمره يتخلق بأخلاق هؤلاء حولًا أو حولين فعسينا أن نموّه على الناس.**[1]

وقد اشتهر يزيد بالفسق والمجون حتّى أنّ رجلًا ظالمًا وجائرًا كزياد بن أبيه لم يعتبره جديرًا بالخلافة! وكان معاوية يعرف ابنه أكثر من أيّ شخصٍ آخر، وكان على علمٍ بفساده الأخلاقيّ والدينيّ، كما يعلم جيّدًا أنّ يزيد لا يستحقّ زعامة العالم الإسلاميّ، لكن بما أنّه لم يكن يؤمن بمصالح الإسلام ولا مصالح الناس، بل كان مفتونًا بابنه ومصلحته فقط، فقد اختاره وليًّا لعهده،[2] حتّى بعد ذلك الحين، كان يزيد غيرَ مبالٍ بمصالح المجتمع والأمّة الإسلاميّة، ولم يكن للحادث الأكثر أذىً للأمّة الإسلاميّة أدنى ندم أو تأثيرٍ عليه.

---

١. المصدر نفسه: ٢٢٠.

٢. ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة: ٢٠٢/١.

وعن الحسن البصري أنّه قال:

قد كانت في معاوية هَناتٍ لو لَقِي أهلُ الأرض ببعضها لكفاهم: [منها] وُثوبُه على هذا الأمر [أي تقمص الخلافة] واقتطاعه من غير مشورة من المسلمين؛ وادعاؤه زيادًا، وقتله حُجر بن عدي وأصحابه، وبتوليته مثل يزيد على الناس.[١]

إنَّ معاوية من خلال البدعة التي زرعها في الخلافة الإسلاميّة، خلق الأرضيّة لانتهاك المقدّسات، وأعدّ الظروف لآل مروان، وهكذا أصبح تعيين ولي العهد للخليفة منذ ذلك الحين، أمرًا شائعًا ومألوفًا بين آل أُميّة (وفي وقت لاحق عند العباسيين)، كما هو الحال عند القياصرة والملوك.

٤. استلحاق "زياد" بأبي سفيان

إذا زنت أمَةٌ وأنجبت ولدًا، فالولد - وفقًا للشريعة الإسلاميّة - لزوجها (إذا كان لها زوج)، أو لمالكها، ولا حظّ فيه للزاني.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الوَلَدُ لِلْفِراش وللعاهِرِ الحَجر»،[٢] وقال أيضًا: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه، فالجنّة عليه حرام»[٣]، و«من انتسب إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا إلى يوم القيامة».[٤]

وقد التزم المسلمون بهذه السنّة النبويّة صلى الله عليه وآله حتّى عام (٤٤) هـ، لكن في هذه السنة ادّعى معاوية وفق سنّة جاهليّة أنّ والده أبا سفيان عاهر بسميّة أمّ زياد المولود على فراش عُبيد في الجاهليّة، واستند معاوية في ادعائه إلى شهادة أبي مريم السلولي، وهو قواد في العصر الجاهلي،[٥] وكان معاوية يغضب إذا لم ينسب أحد "زيادًا" إلى أبي سفيان؛ ولهذا قال

١. سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص: ٢٨٦؛ الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات: ٥٧٤.
٢ ابن الأثير، النهاية فى غريب الأثر والحديث، ج ٣، مادّة عَهَر.
٣. الكليني، الكافي: ٤١٩/٥؛ الأميني، الغدير: ٢١٦/١٠؛ منقول من مسند أحمد: ٣٨/٥-٤٦.
٤. البيهقي، السنن الكبرى: ٤٠٣/٧.
٥. العلامة الأميني الغدير، روايات كثيرة ضمن ١٠ مجلدات، ص٢١٧.

يزيد بن ربيعة: «أَتغضَبُ أَن يُقال أَبوك عَفٌّ، وترضى أَن يُقال أبوك زانٍ»؟![1]

وكما ذكر المؤرّخون، كان دافع معاوية هو استعمال "زياد بن أبيه"، باعتباره شخصًا ذكيًّا ومقتدرًا وأحد عمال الإمام عليعليه السلام، وإبعاده عن الإمام.

روى ابن أثير:

فَلَمَّا وَلِيَ عَلِيٌّ الْخِلَافَةَ اسْتَعْمَلَ زِيَادًا عَلَى فَارِسَ، فَضَبَطَهَا وَحَمَى قِلَاعَهَا، وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِمُعَاوِيَةَ، فَسَاءَهُ ذَلِكَ، وَكَتَبَ إِلَى زِيَادٍ يَتَهَدَّدُهُ وَيُعَرِّضُ لَهُ بِوِلَادَةِ أَبِي سُفْيَانَ إِيَّاهُ،[2] فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ كِتَابَهُ قَامَ فِي النَّاسِ، وَقَالَ: الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِن ابْنِ آكِلَةِ الْأَكْبَادِ، وَرَأْسِ النِّفَاقِ! يُخَوِّفُنِي بِقَصْدِهِ إِيَّايَ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ابْنَا عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ أَمَا وَاللهِ لَوْ أَذِنَ لِي فِي لِقَائِهِ لَوَجَدَنِي أَحْمَزَ مَخْشِيًّا ضَرَّابًا بِالسَّيْفِ.[3]

وَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنِّي وَلَّيْتُكَ مَا وَلَّيْتُكَ وَأَنَا أَرَاكَ لَهُ أَهْلًا، وَقَدْ كَانَتْ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فَلْتَةٌ مِنْ أَمَانِيِّ الْبَاطِلِ وَكَذِبِ النَّفْسِ لَا تُوجِبُ لَهُ مِيرَاثًا وَلَا تُحِلُّ (لَهُ نَسَبًا)، وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ يَأْتِي الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَاحْذَرْ ثُمَّ احْذَرْ، وَالسَّلَامُ.[4]

وظلّ زياد يرفض دعوة معاوية في زمن عليعليه السلام إلى أن استشهد الإمام، فعندئذٍ استدعاه معاوية مرّة أخرى وعرض عليه عرضة من جديد، فحضر عنده حيث كان معاوية قد جمع جماعة من الناس للشهادة على صحّة ادعائه؛ وبهذه الطريقة قد لحق "زياد" إلى أبيه ودعاه أخًا له، ثم استعمله واليًا على الكوفة.

وقد اعتبر الإمام الحسينعليه السلام أنّ هذه بدعة ومن جملة موبقات معاوية، وكتب في الردّ عن رسالته:

أوَلَستَ المُدَّعِيَ زِيادَ ابنَ سُمَيَّةَ المَولودَ عَلى فِراشِ عُبَيدٍ عَبدِ ثَقيفٍ، وزَعَمتَ أَنَّهُ ابنُ أبيكَ، وقَد قالَ رَسولُ اللهصلى الله عليه وآله: "الوَلَدُ لِلفِراشِ ولِلعاهِرِ الحَجَرُ"، فَتَرَكتَ سُنَّةَ رَسولِ

١. الأميني، المصدر نفسه: ٢١٩/١٠؛ المسعودي، مروج الذهب: ١٥/٣.
٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤٧٠/٢.
٣. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١٨٣/١٦ ؛ ابن الأثير، المصدر نفسه: ٤٧٠/٢.
٤. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١٨٢.

اللهصلى الله عليه وآله وخالَفتَ أمرَهُ مُتَعَمِّدا، وَاتَّبَعتَ هَواكَ مُكَذِّبا، بِغَيرِ هُدىً مِنَ اللهِ، ثُمَّ سَلَّطتَهُ عَلَى العِراقَينِ، فَقَطَعَ أيدِيَ المُسلِمينَ، وسَمَلَ أعيُنَهُم، وصَلَبَهُم عَلى جُذوعِ النَّخلِ، كَأَنَّكَ لَستَ مِنَ الأُمَّةِ، وكَأَنَّها لَيسَت مِنكَ.[١]

٥. نماذج أخرى من مُحدثات وبدع معاوية

فقد أحدث معاوية العديد من البدع في الإسلام نذكر نزرًا منها:

١. أحدث في بعض أحكام الحج علنًا، كاستعمال العطر أثناء الإحرام.[٢]

٢. وكان يشرب ويأكل في آنية الذهب والفضّة، وقد نهى عنه رسول اللهصلى الله عليه وآله.[٣]

٣. وكان يلبس الحرير (وهو محرم على الرجال) ولا يلتفت إلى النواهي الإلهيّة.[٤]

٤. وأضاف إلى صلاة العيدين - الفطر والقربان - الأذان والأقامة، مع أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «ليس في العيدين أذان وإقامة».[٥]

٥. وقدّم الخطبة على صلاة عيد الفطر، ومن ثمّ اقتدى به بنو أميّة خلافًا لسنّة رسول اللهصلى الله عليه وآله.[٦]

٦. وقد سأله جماعة عن الجمع بين الأختين مما ملكت اليمين، فقال: «ليس بذلك بأس، أما والله لربّما وددتني أُدرك...».[٧]

٦. حقد معاوية على النبيصلى الله عليه وآله

وقد اشتدت العداوة والبغضاء ضدّ رسول اللهصلى الله عليه وآله وآل بيتهعليهم السلام في عهد معاوية؛ حيث كان في محاولة مستمرّة للتقليل من مكانة الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله بوضع أحاديث مزوّرة، وكيف لا، وهو قد أقسم أن يدفن اسم النبيصلى الله عليه وآله دفنًا دفنًا.

---

١. الطبري، الاحتجاج: ١٦١/٢؛ المجلسي، بحار الأنوار: ٢١٢/٤٤.
٢. ابن عقيل، النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية: ٩٤.
٣. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٢٦/٢٠.
٤. المصدر نفسه: ٢٠١/٨.
٥. الأميني، الغدير: ١٩٣/١٠.
٦. المصدر نفسه.
٧. المصدر نفسه: ١٩١، للمزيد انظر: الغدير، ج ١٠.

نقل ابن أبي الحديد عن موفّقيات الزبير بن بكار، فقال:

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدّث معه، ثمّ ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمًّا فانتظرته ساعة، وظننت أنّه لأمر حدثٍ فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمًّا منذ الليلة؟ فقال: يا بنيّ! جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به، إنّك قد بلغت سنًّا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلًا، وبسطت خيرًا فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه،[1] فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: (أشهد أنّ محمّدًا رسول الله)، فأيّ عملي يبقى، وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلّا دفنًا دفنًا.[2]

إنَّ حديث معاوية هذا يكشف بوضوح عن كفره. ولمّا بلغ هذا الخبر المأمون العباسي في عهد خلافته، أمر الناس بلعن معاوية – كمرسومٍ عام – في جميع أنحاء البلاد الإسلاميّة.[3]

وكذلك منع معاوية نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، يكتب ابن أبي الحديد عن هذا:

كتب معاوية نسخةً واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة (سنة ٤٠ ه): «أنْ برئت الذمة ممَّن روى شيئًا من فضل أبي تراب عليه السلام وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبرٍ يلعنون عليًّا...[4]

---

١. يعود نسب بني هاشم إلى هاشم بن عبد مناف، كما يعود نسب بني أميّة إلى عبد شمس بن عبد مناف؛ لذا فإنّ عبد مناف هو الجدّ المشترك لبني هاشم وبني أميّة على السواء، لكن كما قال الإمام علي عليه السلام أين «أميّة» من «هاشم» وأين «حرب» من «عبد المطلب»، في كتاب له إلى معاوية: وأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فَكَذَلِكَ نَحْنُ، ولَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، ولَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ولَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، ولَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، ولَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ولَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، ولَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ.. وفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، ونَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ، ولَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا وأَسْلَمَتْ لَه هَذِهِ الأُمَّةُ طَوْعًا وكَرْهًا كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وإِمَّا رَهْبَةً عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ، فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا، ولَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا والسَّلَامُ». [نهج البلاغة، الكتاب: ١٧].

٢. المسعودي، مروج الذهب: ٤٥٤/٣؛ ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٤٦٣/١؛ الزبير بن بكّار، الأخبار الموفقيات: ٥٧٦.

٣. المسعودي، المصدر نفسه: ٤٥٤/٣.

٤. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٤٤/١١.

ولم يكتفِ معاوية بعدم نشر فضائل علي عليه السلام وأولاده، بل أقام شبكةً لوضع الأخبار، فعهد إليها بوضع الأحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله للحَطِّ من قيمة أهل البيت عليهم السلام.[١]

٧. سب خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله

استمرارًا لسياسة هجر علي عليه السلام وأولاده، وخلافًا لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، أمر معاوية بسبّ زوج فاطمة الزهراء عليها السلام وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب صلى الله عليه وآله! فقد بدأ معاوية بسبّ علي عليه السلام شخصيًّا، ثمّ أمر أئمّة الجمعة والجماعة بالقيام بذلك[٢].

وفي لفظ الطبري من طريق ابن أبي نجيح قال:

> **لمّا حجّ معاوية طاف بالبيت ومعه سعد، فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره ووقع معاوية في علي وشرع في سبّه، فزحف سعد، ثمّ قال: أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سبّ علي؟ والله لأن يكون لي خصلة واحدة من خصال كانت لعلي، أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس»، وكما أفاد المؤرخون، كتب معاوية، من جهة إلى عمّاله في جميع الآفاق منع الروايات حول فضائل عليّ وأولاده. ومن جهة أخرى، فرض على الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبرٍ أن يلعنوا عليًّا ويبرءوا منه ويقعوا فيه وفي أهل بيته.**[٣]

ولما ولّى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة، سبّ عليًّا وشيعته على المنبر، ممّا أدى لاعتراض "زيد بن أرقم"، حيث قال: «يا مغيرة! ألم تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن سبّ الأموات؟ فلمَ تسبّ عليًّا وقد مات؟»، كما أثار عمل المغيرة غضب صعصعة بن صوحان أيضًا[٤].

وقد استمرّت هذه الأحدوثة القبيحة لمعاوية بعده بأربعين سنة، وكانت الخطباء والوعاظ

---

١. المصدر نفسه: ٢١٩/١٣-٢٢٠.

٢. الأميني، المصدر نفسه: ٢٥٧/١٠ ؛ الطبري، المصدر نفسه: ١٤٩/٦؛ المسعودي، المصدر نفسه: ٦١/١؛ سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص: ١٢.

٣. انظر: الأميني، الغدير: ٢٥٧/١٠-٢٦٧.

٤. الأميني، المصدر نفسه: ٢٦٣/١٠؛ منقول من مسند أحمد: ١٨٨/١؛ أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني: ٢/١٦؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣٨٥/١.

يسبّون عليًّا عليه السلام، حتّى منعهم عمر بن عبد العزيز من فعل ذلك في الخطب والمنابر.

٨. قمع شديد لمحبي أهل البيت عليهم السلام

بعد استشهاد علي عليه السلام ووصول معاوية إلى الخلافة عام ٤٠ هـ، تمّ تنفيذ سياسة القتل والتنكيل بمزيدٍ من العنف والشدّة، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، فقتلهم تحت كلّ حجرٍ ومدر وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

وكما يقول ابن أبي الحديد، فإن الاختناق كان شديدًا لدرجة أنّ الناس لم يثقوا بخدمهم وزوجاتهم، وإذا أرادوا التحدّث إليهم لحلفوهم على عدم نقل الأمر إلى الحكومة.[١]

وعيّن معاوية "سَمُرة بن جندب" واليًا على البصرة، ذاك الرجل السفّاك الذي أراق دماء المؤمنين بأتفه الأعذار.[٢]

وفي أواخر حياته جمع زياد بن سمية أهل الكوفة في دار الإمارة يرغمهم على سبّ عليٍّ عليه السلام، فكان يقتل كلّ من يمتنع من لعن عليٍّ عليه السلام ويهدم بيته.[٣]

وقد أورد ابن أبي الحديد حديثًا عن الإمام باقر عليه السلام أنّه قال:

> **وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية، بعدُ فقُتلت شيعتنا بكلّ بلدةٍ وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هُدّمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام، ثمّ جاء الحجاج فقتلهم كلّ قتلة وأخذهم بكلّ ظنة وتهمةٍ حتّى أنَّ الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال شيعة علي![٤]**

وقد وصلت هذه السياسة الهمجيّة لمعاوية إلى درجةٍ وقعت ضحيّتها كلّ من كان

١. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٤٥/٢.
٢. المصدر نفسه: ٧٧/٤.
٣. المجلسي، المصدر نفسه: ٣٢١/٣٩.
٤. ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٤٤/١١.

صاحب بصيرة وتقوى، كما سبق أن أخبر الإمام علي عليه السلام عن وقوع فتنةٍ كهذه في المستقبل.[١]

ومن أجل إخماد نار الكراهيّة التي كان يحملها تجاه علي عليه السلام، قتل معاوية الصحابة المخلصين وخواصّ أصحاب الإمام عليه السلام بطريقةٍ فظيعةٍ وغير إنسانيّة؛ وفيما يلي نشير إلى نموذجين منها:

رُشَيْد الهَجَريّ: عن زيادِ بنِ النَّضرِ الحارثيِّ قال:

كنتُ عند زيادٍ إذ أُتيَ برُشَيْدٍ الهجريّ، فقالَ له زيادٌ: ما قالَ لكَ صاحبُكَ - يعني عليًّا - إنّا فاعلونَ بكَ؟ قالَ: تَقطَعونَ يديَّ ورجليَّ وتَصلبونني، فقالَ زيادٌ: أمَ واللهِ لأُكَذِّبَنَ حديثَه، خَلُّو سبيلَه. فلمّا أرادَ أن يَخرجَ قالَ زيادٌ: واللّهِ ما نجدُ له شيئًا شرًّا ممّا قالَ صاحبُه، اقطَعوا يديه ورجليه واصلبوه. فقالَ رُشَيْدٌ: هيهاتَ، قد بقيَ لي عندَكم لشيءٌ أخبرَني به أميرُ المؤمنينَ عليه السلام؟ قالَ زيادٌ: اقطَعوا لسانَه، فقال رُشَيْدٌ: الآن واللهِ جاءَ تصديقُ خبرِ أميرِ المؤمنينَ.[٢]

حُجر بن عَدي الكندي وأصحابه: آمن حجر بن عدي في شبابه مع أخيه "هاني بن عدي". ومع أنه كان صغيرًا من حيث العمر في زمن النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّه كان من فضلاء الصحابة.[٣]

وكان رجلًا مقاتلًا، فقد أودعت الشجاعة والبسالة في جبلّته، ورغم أنّه لم يدرك غزوات عصر النبيّ صلى الله عليه وآله، إلّا أنّه كان تمكّن من الوقوف في صفّ المجاهدين الشجعان في فتح الشام ومعركة القادسية وفتح المدائن.[٤]

---

١. قال الإمام علي عن الفتنة: «أَلَا وإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وأَيْمُ الله لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ تَعْذِمُ فِيهَا، وتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعًا لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ، ولَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّه والصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِه، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً وقِطَعًا جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى ولَا عَلَمٌ يُرَى. نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ ولَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ثُمَّ يُفَرِّجُهَا الله عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَدِيمِ مَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفًا، ويَسُوقُهُمْ عُنْفًا، ويَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ، لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، ولَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا ومَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَامًا وَاحِدًا ولَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ لأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَه فَلَا يُعْطُونِيه!» [نهج البلاغة، الخطبة: ٩٣].

٢. مفيد، الارشاد فى معرفة حجج الله على العباد: ١٧١؛ ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٢١١/١.

٣. ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٨٥/١.

٤. حياة الصحابة: ٥١١/٤ منقول من: بحوث الأستاذ جعفر السبحاني/ مهدى بيشوايي، "شخصيت‌هاى اسلامى شيعه": ١٧١/٢.

وبعد وفاة النبيﷺ، كان حجر دائمًا إلى جنب عليؑ، وكان من خواصّ أصحاب أمير المؤمنينؑ الأوفياء؛ فكان على رأس قبيلة "كندة" في معركة صفين، على ميسرة الجيش في معركة نهروان.[١]

ولمّا هاجم "سفيان بن عوف الغامدي" مدينة "الأنبار" (التابعة لولاية الكوفة) بأمرٍ من معاوية وقتل من قتل ونهب ما نهب وخلق فيها رعبًا كبيرًا، بعث الإمام عليؑ سعيد بن قيس وحجر بن عدي على رأس جيشٍ قوامه ثمانية آلاف جندي لمجابهته، كما أوكله مهمّة الوقوف ضدّ غارات ضحاك بن قيس أحد قادة معاوية الأشدّاء، حيث أدّاها بنجاحٍ ليضُمّ بذلك مفخرة أخرى لقائمة مفاخره ومناقبه.[٢]

وكانت الشيعة يختلفون إليه في الكوفة، ويشكّلون صفوفهم ضدّ الأمويين، ثمّ مع موت المغيرة وتولية "زياد بن أبيه" على الكوفة، تعرّض حُجر للتهديد والاضطهاد من جانب "زياد"، ولما حاول رجال "زياد" القبض عليه منعهم أنصاره؛ لذلك أرسل "زياد" المزيد من المحاربين لاعتقاله، ولما أحسّ حُجر، بأنّ قوّاته غير متكافئة، لم ير من المناسب القتال، بل اختبأ في منزل أصحابه، فكان "زياد" يحاول جاهدًا العثور على حجر، فيقوم بتعذيب كلّ من يقبض عليه من أصحابه ليكشف عن مكان اختبائه، فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث وقال له: «والله لتأتيني به أو لأقطعنَّ كلّ نخلة لك وأهدم دورك، ثمّ لا تسلم منّي حتّى أقطعك إربًا إربًا».

مكث حجر بن عدي في بيت أصحابه لفترة، وعانى ما عانى من قمع أصحابه وأقربائه، فأرسل إلى محمّد بن الأشعث يقول له ليأخذ له من زياد أمانًا حتّى يبعث به إلى معاوية، فجمع محمّد جماعة من وجوه أهل الكوفة، فدخلوا على زياد فاستأمنوا له على أن يرسله إلى الشام عند معاوية، فوافق عليه زياد، فسلّم حجر بن عدي نفسه، ثم بعثه

١ ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٨٥/١.

٢. الثقفي الكوفي، الغارات، ترجمة: عبد الحميد آيتي، ١٣٧١: ١٦٠.

زياد إلى الشام ومعه أحد عشر رجلًا كانوا في السجن من شيعة علي عليه السلام.

ونظرًا لأنّ معاوية كان يعتبر حُجر بن عدي خطرًا على حكومته وكان مصمّمًا على قتله، فلم يرد مواجهته؛ لذلك بعث جلاوزته إلى مرج عذراء، اثني عشر ميلًا من دمشق، لقتله.[١]

وقدّم الجلاد فقال لهم: «إنّ معاوية أمرنا بقتلكم إلّا أن ترجعون عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرّءون منه»؛ فقالوا: «إنّ الصبر على حدّ السيف لأيسر علينا ممّا تدعوننا إليه، ثمّ القدوم على الله وعلى نبيّه وعلى وصيّه أحبّ إلينا من دخول النار».[٢]

وهكذا قتل معاوية حجرًا وستّةً من أصحابه ظلمًا، في مرج عذراء.[٣]

عهد يزيد وطمث القيم الإسلاميّة بأجمعها

لقد بدأ الانحراف الثقافيّ والسياسيّ والاجتماعيّ في المجتمع الإسلاميّ بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله وانتشر يومًا بعد يوم، وفي عهد عثمان اضمحلّت القيم الإسلاميّة والمعنويّة واحدة تلو الأُخرى، وحلّت محلّها القيم المادّيّة والجاهليّة، وبلغت هذه العمليّة المنحرفة ذروتها في نهاية حياة معاوية، ثمّ مع حكم يزيد بن معاوية، ارتفعت وتيرة المؤامرة ضدّ المبادئ والقيم الإسلاميّة، وظهرت الجاهليّة بكلّ خصائصها وتعرّض الدين الإسلامي للتشويه والتحريف.

ومن هذا المنطلق أجاب الإمام الحسين عليه السلام على مروان، عندما طلب منه مبايعة يزيد، فقال:

«إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، وَعَلَى الْاسلامِ السَّلام، إِذْ قَدْ بُلِيَتِ الأُمَّةُ بِراعٍ مِثْلَ يَزيد»[٤].

---

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦/٢١٩.

٢. المسعودي، المصدر نفسه: ٣/١٢.

٣. الأميني، المصدر نفسه: ١١/٥٣.

٤. الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ١/١٨٥.

وعندما استولى يزيد المتجاهر بالفسق على كرسيّ الخلافة، أخذت معارضة القرآن الكريم وسنّة رسول اللهﷺ طابعًا علنيًّا، كما أخذت محاربة الدين تسارعًا مضطردًا، يقول الشهيد مطهريرحمه الله في هذا الصدد:

هناك فرق بين الخليفة الفاسق الذي يدير الأُمور على الوجه الصحيح، والخليفة الذي يُعتبر مجرّد وجوده ضدّ مصالح المسلمين، كانت المسألة الأساسيّة في عهد الإمام الحسينعليه السلام، هي أنّ الخلافة الإسلاميّة قد تحوّلت إلى ملكيّة عربيّة متعجرفة، مستبدّة، باذخة وغير أخلاقيّة، ولو لم يقم الإمام الحسينعليه السلام في إبانها، كان هناك خطر القضاء على الدولة الإسلاميّة من قبل شعوب البلدان المفتوحة.[1]

كان الفارق الأساس بين يزيد وأبيه معاوية هو أنّ ما فعله معاوية في السرّ، فعله يزيد علانيّةً؛ لذلك كان تأثيره الاجتماعيّ أكبر بكثير، كما يورد المسعودي:

جرّاء تجاهر يزيد بفعل المحرّمات، أصبح ارتكاب المعاصي أمرًا شائعًا بين عمّال ورجال حكومته، حتّى أصبح شرب الخمر واستعمال آلات اللهو والغناء في مكة والمدينة [اللتين كانتا مدينتين دينيتين ومقدستين] أمرًا شائعًا.[2]

مع حكومة يزيد بن معاوية ظهرت أنواع البدع والمحدثات، ونُسي القرآن الكريم وسنّة الرسولﷺ؛ الأمر الذي دفع الإمام الحسينعليه السلام أن يكتب في رسالته إلى أهل البصرة:

أَدْعُوكُمْ إِلى كِتـابِ اللهِ وَسُنَّةِ نبيّه؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُميتَتْ وَالْبِدْعَةَ قَدْ أُحْيِيَتْ...[3]

شِركُ يزيد وكفرُه

على عكس أبيه الذي كان يتظاهر بالإسلام، فقد أسقط يزيد بن معاوية القناع عن وجهه الحقيقيّ الملوّث بالكفر والنفاق، وكشف عن الهدف الغائيّ لبني أُميّة من وراء الحكم، فقد زعم من سفاهته أنّ الدين قد انتهى وأصحاب الدين قد قضي عليهم، فكان

١. المطهري، حماسه حسيني: ٨٩/٣.
٢. المسعودي، المصدر نفسه: ٧٩/٣.
٣. الطبري، المصدر نفسه: ٣٠٤/٤؛ ابن الأثير، المصدر نفسه: ٥٣٥/٢.

شغله الشاغل شرب الخمور والسرف في اللهو والمجون، كما روي أنّه عبّر عن حزنه وأسفه بقراءة قصيدة عن هزيمة كفّار قريش ضدّ المسلمين في غزوة بدر، ووصف مقتل أولاد النبيّ وآل وحي النبوة في كربلاء بمثابة انتقام من رسول الله صلى الله عليه وآله، وتمنّى لو كان آبائه وأجداده أحياء، ليروا قتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولوا له: «يا يزيد لا تشل!» ثم اعترف بكفره قائلًا: «لعبت بنو هاشم بالملك، فلا خبر جاء ولا وحي نزل»[1].

ومن الأدلّة الأخرى على كفر يزيد القصائد التي رواها ابن الجوزي؛ فقد أظهر ذات صدره في قصيدته التي يقول فيها:

علـيّـة[2]، هـاتي واعـلـني وتـرنّـمي	**بـذلـك إنّي لا أحـبُّ التـنـاجـيـا**
حديث أبي سـفيان قدمًا سَـمَا بها	**إلى أحـد حـتى أقـام البـواكـيـا**
ألا هـات سـقّـيـني على ذاك قـهـوةً	**تخيّرها الـعنسـي كرما شـاميا**
إذا مـا نـظـرنـا في أمـورٍ قـديـمـةٍ	**وجـدنـا حـلالًا شربـهـا مـتـواليـا**
وإن مُـتُّ يـا أُمَّ الأحـيـمـر فـانـكـحي	**فـإنّ الذي حـدّثـت عـن يـوم**
ولا تأملي بعد الفراق تـلاقيًا بعثنا	**أحاديث طسـم تجعل القلب سـاهيا**
ولا بـدّ لي مـن أن أزور محـمـدًا	**بـمشـمولةٍ صـفراء تروي عظاميا[3]**

بالإضافة إلى حقيقة أنّ يزيد صرّح علانيّةً عن شركه وكفره في كثير من الحالات؛

---

١. الأميني، المصدر نفسه: ٢٦٠/٣؛ ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٢٧٩/١٤.

لَيـتَ أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج مـن وقع الأسل
قَدْ قَتَلْنَا الْقَرمَ مِنْ سـاداتِهِم	وَعَـدَلْنـا مَيْـل بَـدْرٍ فَاعْتَدِلْ
فَاَهَـلُّوا وَاسْتَهَـلُّوا فَـرَحًا	مِـنْ بَنِي أَحْمَدَ مـا كـانَ فَعَل
لَعِبَتْ هاشِـمُ بِالْمُلْكِ فَـلا	خَـبرٌ جـاءَ وَلا وَحيٌ نَـزَل

٢. يخاطب يزيد في هذه القصيدة حبيبته ويقول لها: "ترنّمي وأعلني قصّة أبي سفيان لمّا جاء إلى أحد وفعل ما فعل، حتى أقام البواكي على حمزة وغيره من شهداء أحد، أعلني ذلك ولا تذكريه في نجوى، واسقيني على ذلك خمرًا تخيّرها الساقي من كروم الشام، فإنّا إذا نظرنا في أمور قديمة من أعراف قريش وآل أميّة في الجاهلية وجدنا حلالًا شربها متواليًا، وأمّا ما قيل لنا عن البعث، فهو من قبيل أساطير (طسم) تشغل قلبنا، فلا بعث ولا نشور، فإذا متّ فانكحي بعدي إذ لا تَلاقٍ بعد الموت، ثمّ يستهزئ بالرسول، ويقول: ولا بدّ أن ألقاه بخمرة باردة تروي عظامي".

٣. سبط بن الجوزي، المصدر نفسه: ٢٥٠.

فإنّ سلوكه وأفعاله هي أيضًا دليل آخر على هذا المدَّعى، حكم يزيد لأكثر من ثلاث سنوات، ففي السنة الأولى قتل حجّة الله على أرضه الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيت رسول الله (عليهم الصلاة والسلام)، وفي السنة الثانية استباح حرم رسول الله وهتك حرمة المدينة، وفي السنة الثالثة أحرق الكعبة بالمنجنيق،[١] ولا شك أنّ أيًّا من هذه الجرائم البشعة لا يمكن أن يصدر عن شخصٍ مسلمٍ موحّد.

ونقل سبط بن الجوزي بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل (قال)، قلت لأبي:

إنَّ قومًا ينسبونا إلى توالي يزيد. فقال: يا بُنيّ، وهل يتوالى يزيد أحد يؤمن بالله؟! فقلت: فلم لا تلعنه؟ فقال: ولِمَ لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ فقلت: وأين لعن الله يزيد في كتابه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ، أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾،[٢] وهل يكون فساد أعظم من قتل الحسين عليه السلام، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾،[٣] وأيّ أذى أشدّ على محمّد صلى الله عليه وآله من قتل الحسين عليه السلام الذي هو له ولبنته البتول قرة عين؟!.[٤]

تاريخ يزيد المليء بالفسق والفجور

وعلى الرغم من أنّ بعض مظاهر الكفر والشرك والرجس - ممّا تمّ ذكرها - بدت على يزيد بعد خلافته وبعد حادثة كربلاء، إلا أنّه كان هكذا منذ شبابه ومن فترة ولايته لعهد أبيه، وكان الإمام الحسين عليه السلام وغيره من رؤوس المجتمع على علم بذلك؛ ولذلك فإنّ الإمام الحسين عليه السلام منذ فترة ولاية يزيد للعهد، قام بمخالفته، مؤكّدًا على خبث طينته وسريرته، كما كتب في إحدى رسائله إلى معاوية بعد تذكيره ببدعه، قائلًا:

ثُمَّ وَلَّيْتَ ابْنَك وَهُوَ غُلامٌ يَشْرَبُ الشَّرابَ، وَيَلْهُو بِالْكِلابِ، فَخُنْتَ أَمانَتَك، وَأَخْرَبْتَ

---

١. المسعودي، المصدر نفسه: ٣/٨٠-٨٤.
٢. محمد: ٢٢ و ٢٣.
٣. الأحزاب: ٥٧.
٤. ابن الجوزي، المصدر نفسه: ٢٥٧.

رَعِيَّتَك، وَلَم تُؤَدِّ نَصيحَةَ رَبّك، فَكَيْفَ تُوَلّي عَلى أُمَّةِ مُحَمّدٍ مَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ؟ وَشارِبُ الْمُسْكِرِ مِنَ الْفاسِقينَ، وَشارِبُ الْمُسْكِرِ مِنَ الأشْرارِ، وَلَيْسَ شارِبُ الْمُسْكِرِ بِأَمينٍ عَلى دِرْهَمٍ، فَكَيْفَ عَلَى الأُمَّةِ؟.[1] وقال في خطاب آخر له: وَيَزيدُ شارِبُ الْخُمُورِ... وَمِثْلي لا يُبايِعُ مِثْلَهُ.[2]

الأوضاع القلقة للأمّة الإسلاميّة

بلغ مسار التدهور الثقافيّ والسياسيّ والاجتماعيّ للعالم الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ذروته عام ٦٠ هـ؛ إذ حلّت البدع محلّ سنن نبيّ الله صلى الله عليه وآله، وانتشر التمييز والفساد والانحلال الاجتماعيّ، ووقع مصير الأمّة الإسلاميّة بيد فساق ومنافقين من أمثال معاوية وابنه يزيد شارب الخمور، فطفقوا ينفثون في أرواح المسلمين سمّ الذل والمهانة حتّى أماتوا هممهم ومحوا من ألواح نفوسهم آيات العزّة والكرامة بتضييق الخناق عليهم، فكانت تحكم المجتمع الإسلاميّ حالة من الفوضويّة من مختلف النواحي؛ لذلك لما علم أهل الكوفة أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد ثار ضدّ النظام الأمويّ من مقامه في مكّة، أرسلوا فيضًا من الرسائل إلى مكّة، وطلبوا من الإمام إصلاح أوضاع الأمّة المضطربة.

كما تتكشّف من خلال مراجعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، حالة الفوضى السائد في المجتمع الإسلاميّ من جوانب شتّى؛ فقد أكّد الإمام عليه السلام على عدّة أمورٍ تتعلّق بالظروف الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة للبلاد الإسلاميّة، منها:

١. محو السنن وشيوع البدع

فقد كتب الإمام الحسين عليه السلام بعد دخوله إلى مكّة، إلى وجوه أهل البصرة:

وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فإنّ السنّة قد أميتت، وإنّ البدعة قد أحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله.[3]

---

١. موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٢٥٨.

٢. السيد بن طاووس، اللهوف على قتلى الطفوف: ٢٢.

٣. أبو مخنف، مقتل الحسين ٧، ص ٨٥ ؛ نجمي، "سخنان حسين بن علي عليه السلام، از مدينه تا كربلا"، ص ٥٤.

وقال في ملتقى المئات من الصحابة والتابعين أثناء الحج:

وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تقرعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تقرعون وذمّة رسول الله محقورة.[١]

وعندما واجه جيش "الحر" في منزل "بيضة" تكلم حول الأوضاع الثقافيّة بقوله:

... ألا وإنَّ هؤُلاءِ (بني أمية) قَد لَزِموا طاعَةَ الشَّيطانِ، وتَرَكوا طاعَةَ الرَّحمنِ، وأظهَرُوا الفَسادَ، وعَطَّلُوا الحُدودَ، وَاستَأثَروا بِالفَيءِ، وأحَلّوا حَرامَ اللهِ، وحَرَّموا حَلالَهُ.[٢]

تُظهر هذه الكلمات بوضوح كيف كان المجتمع الإسلامي منحرفًا ومنحطًا من الناحية الثقافيّة والاجتماعيّة خلال حكم معاوية.

٢. تسلط الفجرة على رقاب المسلمين

من المشاكل الجدّيّة للمسلمين في عهد معاوية فرض سيطرة عدد من الفسّاق والجائرين على مصير الأمّة، بدأت هذه المشكلة من عهد الخليفة الثاني وبلغت ذروتها في عهد معاوية؛ حيث جعل أمثال عمرو بن عاص، ومغيرة بن شعبة، وبُسر بن أرطاة، وزياد بن أبيه، وسمرة بن جندب، ويزيد بن معاوية، ممّن لم يكن يوثق بهم في درهمٍ واحد، يتحكّمون في أرواح المسلمين وممتلكاتهم، كما صرّح الإمام الحسين عليه السلام حول هذه المشكلة وعواقبها ضمن مواقف مختلفة؛ فقال عليه السلام في حديثه إلى الصحابة والتابعين أثناء انتقادهم لهم:

وَلَوْ صَبَرْتُمْ عَلَى الأذَى، وَتَحَمَّلْتُمُ الْمَئُونَةَ فى ذاتِ اللهِ، كانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ وَإلَيْكُمْ تُرْجَعُ، وَلكِنَّكُمْ مَكَّنْتُمُ الظَّلمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَاسْتَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فى أيْديهِمْ يَعْمَلُونَ بِالشُّبَهاتِ، وَيَسيرُونَ فى الشَّهَواتِ، سَلَّطَهُمْ عَلى ذلِكَ فِرارُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَإعجابُكُمْ بِالْحَياةِ الَّتى هِيَ مُفارِقَتُكُمْ؛ فَأَسْلَمْتُمُ الضُّعَفاءَ في أَيْدِيهِم، فَمِنْ بَيْنِ مُسْتَعْبَدٍ مَقْهُورٍ، وَبَيْنِ مُسْتَضْعَفٍ عَلى مَعيشَتِهِ مَغْلُوبٍ. يَتَقَلَّبُونَ فى الْمُلْكِ بِآرائِهِمْ وَيَسْتَشْعِرُونَ الخِزْيَ بِأهوائِهِمْ اقْتِداءً بِالأشرارِ وَجُرْاةً عَلَى الجَبّارِ، في كُلِّ

١. موسوعة كلمات الامام حسين عليه السلام: ٢٧٦، منقول من تحف العقول: ١٦٨؛ بحار الأنوار: ٧٩/٤٤.
٢. الطبري، المصدر نفسه: ٣٠٤/٤ ؛ ابن الأثير، الكامل: ٥٥٢/٢.

بَلَدٍ مِنْهُمْ عَلَى مِنْبَرِهِ خَطيبٌ يَصْقَعُ، فَالْأَرْضُ لَهُمْ شاغِرَةٌ، وَأَيْديهِمْ فيها مَبْسُوطَةٌ، وَالنّاسُ لَهُمْ خَوَلٌ، لا يَدْفَعُونَ يَدَ لامِسٍ، فَمِنْ بَيْنِ جَبّارٍ عَنيدٍ، وَذي سَطْوَةٍ عَلَى الضَّعَفَةِ شَديد، مُطاعٍ لا يَعْرِفُ الْمُبْدِئ الْمُعيدَ .فَيا عَجَبًا، وَما لي لا أَعْجَبُ، وَالأَرْضُ مِنْ غاشٍ غَشُومٍ وَمُتَصَدّقٍ ظَلُومٍ وَعامِلٍ عَلَى الْمُؤمنينَ بِهِمْ غَيْر رَحيمٍ.[1]

٣. إماتة القيم والفضائل

وكان من الاضطرابات التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في عهد معاوية نسيان القيم الإسلاميّة وسيطرة سنن عصر الجاهليّة، فقد وقف الإمام الحسينعليه السلام في طريقه إلى العراق في منزل سمّي بـ"ذي حُسُم" وقال لأصحابه:

إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ الأَمْرِ ما قَدْ تَرَوْنَ، وَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُها، وَاسْتَمَرَّتْ جِدًّا وَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلا صُبابَةً كَصُبابَةِ الإناءِ، وَخَسيسِ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَبيلِ، أَلا تَرَوْنَ إِلَى الْحَقِّ لا يُعْمَلُ بِهِ، وَإِلى البـاطِلَ لا يُتَناهى عَنْهُ...[2]

٤. القضاء على الشخصيّة الإسلاميّة للمسلمين

تسبّب الأمويّون من خلال قتل وتعذيب معارضيهم وسجنهم في سجون مخيفة، في قمع شديد في البلاد الإسلاميّة، وكانت هذه الضغوط السياسيّة تضيّق الخناق وشديدة لدرجة أنّها دمّرت الشخصيّة الإسلاميّة للمسلمين ومحت عزّهم، فعلى سبيل المثال: إنّ الآلاف من أهل الكوفة الذين راسلوا الإمام الحسينعليه السلام وبايعوا نائبه مسلم بن عقيل، عندما سمعوا أنّ عبيد الله بن زياد قد تولّى حكم الكوفة، خافوا حتّى لم يقم أحدهم بمساعدة مسلم، واستشهد وحيدًا مظلومًا.

وخاطب الحسين بن عليصلى الله عليه وآله وجوه الكوفة في هذا الصدد، فقال:

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، فالمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم»[3].

١. موسوعة كلمات الإمام الحسينعليه السلام: ٢٧٦ ؛ منقول من: بحار الأنوار: ٧٩/١٠٠؛ تحف العقول: ١٦٨.

٢. المجلسي، المصدر نفسه: ١٩٢/٤٤.

٣. الخوارزمي، مقتل الحسينعليه السلام: ٢٣٤/١؛ المجلسي، المصدر نفسه: ٣٨٣/٤٤.

كما يستفاد من كلمات الإمام الحسين عليه السلام، كان الناس يعانون من أنواع الظلم والتمييز وكان قلوبهم ضدّ بني أميّة، لكنّهم لم يكونوا يتجرّؤون على القيام ضدّهم فيتحمّلون ظلمهم وجورهم؛ كما أكّد فرزدق في لقائه مع الإمام الحسين عليه السلام على هذه الحقيقة، شارحًا أوضاع الكوفة له بأنّ : «قُلوب الناسِ مَعَكَ وسُيُوفُهُم مَعَ بني أميّة».[1]

ويقول الشهيد المطهري رحمه الله: «عبّر به فرزدق عن الرأي العام، عامّة الناس الذين انقادوا لكبرائهم وأمرائهم، ولم يكن لديهم إرادة، لكن "مجمع بن عبد الله"، قد فرّق بين الأشراف الضعفاء الإيمان، والعامّة الضعفاء المغلوب على أمرهم وذلك بقوله:

> **أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودّهم ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلب واحد عليك، وأمّا سائر الناس بعد، فإنَّ أفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غدًا مشهورة عليك.**[2]

كان هذا الوضع نتيجة السياسات الاستبداديّة والجائرة للأمويين، الذين شوّهوا شخصيّة الأمّة الإسلاميّة وسحقوها، فلم يبق لأحد شيئًا من روح العزّة والحرّيّة والإباء تجاه الظلم.

٥. إحياء السنن الجاهليّة

كما يمكن استنتاجه من كلام الإمام الحسين عليه السلام في مواضع مختلفة، عبر المصادر التاريخيّة الأصليّة؛ فإنّ المجتمع في عهد معاوية ويزيد قد تراجع وتقهقر بشكل أساس؛ لهذا السبب لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن الذنوب الصغيرة واللمم التي كانت شائعة بين الناس، بل اشتكى من تغيير الأوضاع السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وتحوّلها من الشريعة الإسلاميّة إلى حكم الجاهليّة. وحتّى لو لم تتبع مجموعة كبيرة من الناس الشريعة الإسلاميّة، لم تتمكّن من خلق مثل هذا الوضع المؤسف الذي من شأنه أن يؤسف ولي الله وحجّة الحقّ

١. ابن الأثير، الكامل: ٥٤٧/٢.
٢. المطهري، "حماسه حسيني": ١٤٥/٣. للمزيد راجع: (أبو مخنف، مقتل أبو مخنف: ٨٨).

بحيث يتمنى الموت والشهادة. فما تسبب في تأثر ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لتلك الدرجة، هو ترك سنّة النبي صلى الله عليه وآله وهجر القرآن الكريم في جميع الشؤون الفرديّة والاجتماعيّة، التي كانت تمليها وتروج لها الحكومة، وكانت قد ظهرت في عصر معاوية ويزيد، فمن الطبيعي وفي هذه الأجواء، يتمنى أيّ رجل حرّ ومؤمن مثل الإمام الحسين عليه السلام الموت وينتفض بكلّ كيانه ووجوده لإيقاظ الناس، فهو باعتباره أحد آل بيت النبي الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) كان قد تربّى في حضن أشرف الخلائق أجمعين، وعُرف بوصفه أفضل الناس دينًا، ومثال متميز في العالم الإسلاميّ، فلا يمكن أن يبقى غير مبالٍ بما يحدث للإسلام والمسلمين. وقد يؤدّي صمته في مواجهة مثل هذا الوضع إلى خلق التوهم بمشروعيّته لدى الرأي العام، ويستفاد هذا المعنى بوضوح من كلام ذلك الإمام المعصوم حيث قال:

أَلا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لايُعْمَلُ بِهِ، وأَنَّ الْبـاطِلَ لا يُتَنـاهى عنه، لِيَرغَبِ الْمُؤمِنُ في لِقـاءِ ربِّهِ مُحِقًّا، فإنّي لا أَرَى الموتَ إلّا سَعـادَةً، والْحَيـاةَ مَعَ الظّالِمِينَ إلّا بَرَمـا.[1]

كما صرّح ذاك الإمام الهمام في وصيّته بالسبب الأهمّ لخروجه ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد المستشري والاضطرابات الاجتماعيّة والدينيّة، بقوله:

أُريدُ أَنْ آمُرَ بالْمَعْروف وأَنْهى عَنِ الْمُنكَرِ، وأَسيرَ بسيرَةِ جَدّي وأَبي علي بن أبي طالب.[2]

وقال الإمام الحسين عليه السلام في أحد المنازل بين الطريق مؤكّدًا هدفه من القيام:

أيّها الناس! إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رآى سلطانًا جائرًا مستحلًا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعلٍ ولا قولٍ كان حقًّا على الله أن يُدخله مدخلَه، ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيئ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري.[3]

١. المجلسي، المصدر نفسه: ١٩٢/٤٤.

٢. الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام: ٢٧٣/٢؛ المجلسي، المصدر نفسه: ٣٢٩/٤٤.

٣. الطبري، المصدر نفسه: ٣٠٤/٤؛ ابن الأثير، المصدر نفسه: ٥٥٢/٢؛ المجلسي، المصدر نفسه: ٣٨٢/٤٤.

نتيجة البحث

إنّ قيام الإمام الحسين عليه السلام لم يحدث فجأة بعد دعوة يزيد له بالبيعة، بل كان خطةً مدروسةً للغاية لحماية الدين الذي جاء به جدّه الكريم صلى الله عليه وآله لإنقاذ البشريّة. بعبارة أخرى، وكما وقفت سلالة بني أميّة صفًّا واحدًا ضدّ دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبذلوا كلّ ما في وسعهم عبر الأجيال لتقويض أسس رسالته صلى الله عليه وآله باستخدام شتّى الطرق والأساليب، فكذلك بموازاتهم، ذرّيّة النبيّ من أئمّة أهل البيت عليهم السلام أبقت غرسة الإسلام قائمة بتحمّلهم أنواع الظلم والجور لتنمو وتتحوّل إلى شجرة قويّة، ولم يسمحوا للأمويين باقتلاع جذورها أو إحداث تحريف فيها.

لذلك فإنّ جذور عاشوراء تعود إلى زمن حاولت فيه قريش بقيادة أبي سفيان كتم صوت الدعوة الإلهيّة لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يأذنوا بقيام النبوّة واستمرار الإمامة من آل بني هاشم، وعلى الرغم من أنّ هدف قريش هذا لم يتحقّق في حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، لكن - مع الأسف - بعد وفاته صلى الله عليه وآله، تمكّنوا من خلال ترتيب السقيفة من إبعاد بني هاشم وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من الساحة السياسيّة، ما أدّى بالتدريج إلى انزلاق المجتمع الإسلاميّ في مهاوى الحمية الجاهليّة، وعندما وقع زمام أمور الناس في أيدي الأمويين، تفرّغ المجتمع الإسلاميّ من المظاهر الدينيّة أيضًا، وظهرت من جديد كلّ انحرافات الجاهليّ في ثوب قشيب وملمَّع، وتحوّل الحكم الإسلاميّ من الخلافة إلى الملكيّة الوراثيّة، فبدأت عناصر البدع من كل حدَبٍ ينسلون...

وأمّا الإمام الحسين عليه السلام الذي كان شاهدًا على هذه التحريفات منذ زمن جدّه صلى الله عليه وآله، فكان يبحث دومًا عن فرصةٍ مناسبةٍ لمحاربة البدع وإنقاذ الإسلام من قيود الأمويين، وبطبيعة الحال، عندما مات معاوية وطلب يزيد منه البيعة، أتيح له فرصة للخروج.

وعلى هذا الأساس، فإنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام ترجع جذورها إلى التطوّرات الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة في العصر النبوي صلى الله عليه وآله، ثمّ قد لعبت عوامل مختلفة دورًا في هذه النهضة، ولكن يمكن القول إنّ أهمّها هو قيام الأمويّين بإحياء السنن الجاهليّة وإضعاف القيم الدينيّة وخلق الانحرافات والبدع في الإسلام.

مصادر البحث

القرآن الكريم.
نهج البلاغة.
١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغه، قم، منشورات مكتبة آيةالله المرعشي النجفي، ١٤٠٤ ق.
٢. ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩ق.
٣. ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٩ق.
٤. ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، التحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥. ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٠ق.
٦. ابن عقيل، النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، مطبعة الجناح، بغداد.
٧. ابن قتيبه الدينوري، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، التحقيق: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٤١٠ق.
٨. أبو مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف، مقتل أبي مخنف، تعليقة حسن غفاري، قم، مطبعة العلميّة، ١٣٩٨ق.
٩. اجتهادي، أبو القاسم، "بررسى وضع مالى ومالیه مسلمین"، طهران، سروش، ١٣٦٣.
١٠. الأميني، عبد الحسين، الغدير، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٦ش.
١١. البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، بيروت، دار الفكر، ١٤١٠ق.
١٢. الثقفي، إبراهيم بن محمد، الغارات، الترجمة: عبدالحميد آيتي، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٣٧١.
١٣. الخوارزمي، موفق بن أحمد، مقتل الحسين، دار أنوار الهدى، ١٤٢٣ق.
١٤. الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، قم، منشورات الشريف الرضي، ١٤١٦ق.
١٥. السبحاني، جعفر؛ بيشيوايى، مهدي، "شخصيت‌هاى اسلامى شيعه"، قم، منشورات توحيد، ١٣٧٣.
١٦. سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٢ق.
١٧. سليم بن قيس الهلالي، أسرار آل محمد، الترجمة: إسماعيل أنصاري زنجاني، محمود رضا افتخارزاده، قم، الهادي، ١٤٠٥ق.
١٨. سيد بن طاووس، اللهوف على قتلى الطفوف، قم، أنوار الهدى.
١٩. الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، الترجمة: كمره اي، طهران، كتابتشى، ١٣٧٦ش.

٢٠. الطبرسي، فضل بن حسن، الاحتجاج على أهل اللجاج، التحقيق: محمد هادي وإبراهيم بهادري، قم، أسوة، ١٤٢٤ق.
٢١. الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان فى تفسير القرآن، طهران، ناصر خسرو، ١٣٧٢ش.
٢٢. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٩ق.
٢٣. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، طهران، مكتبة مرتضوي، ١٣٧٥ش.
٢٤. القمي، شيخ عباس، نفس المهموم، التحقيق: رضا أستادي، قم، دليل ما.
٢٥. القمي، شيخ عباس، سفينة البحار، أسوة، ١٤١٠ق.
٢٦. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧ق.
٢٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، طهران، إسلامية، ١٣٨٦ش.
٢٨. المسعودي، علي بن حسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، التحقيق: أسعد داغر، قم، دار الهجرة، ١٤٠٩ق.
٢٩. المطهري، مرتضى، "حماسه حسيني"، صدرا، ١٣٩٩ش.
٣٠. المفيد، محمد بن نعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، بيروت، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات.
٣١. المفيد، محمد بن نعمان، الأمالى، التحقيق: حسين أستاد ولي، مشهد، مؤسسة البحوث الإسلامية، ١٣٦٤ش.
٣٢. موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، معهد تحقيقات باقر العلوم، دار المعروف للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
٣٣. نجمي، محمد صادق، "سخنان حسين بن على عليهما السلام از مدينه تا كربلا"، قم، مكتب منشورات جمعية المدرسين في حوزة قم العلمية، ١٣٩٤.
٣٤. اليعقوبي، أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ.